

صور استرقاق الزنوج والسود في رواية مهجة لمحمد مباركي

*Pictures of black and negro enslavement in the novel by
Muhammed Mubarak*

د. وسيلة بكيس *

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الارسال

الملخص:

ظل الاسترقاق وجهها غير شرعي، مناف لفطرة الإنسان وجبلته التي فطر عليها، وظلت الحرية المطلب الأسمى لجميع العبيد المسترقين خاصة الزنوج والسود، وذلك بسبب ما لحقهم من تمييز وعنصرية وتعذيب من طرف أسيادهم وبياض القوم؛ لأنهم يرون بأن الزنوج ليسوا من الإنسان، بل إن مقامهم أدنى من مقام الحيوان. كما تقرر أنه "لا يجوز استرقاق المسلم المولود من أبوين حرين" وأما الآخرون الذين لا يدينون بالإسلام، فيشترط في استرقاقهم أن يكونوا أسرى حرب شرعية، ويشترط أن تكون الحرب في صالح الإسلام، غير أن هؤلاء الزنوج السود كانوا يؤخذون سبيًا واختطافًا، وبطرق غير شرعية يقصد منها المنفعة الشخصية، نظرا لبنيتهم الجسدية القوية، وتحملهم الأعمال الشاقة.

ويهدف البحث إلى إبراز تمثيلات العبيد السود داخل رواية "مهجة لمحمد مباركي" حيث صورت نماذج عديدة على رأسهم الزنجي (أفلح) ابن أدغال إفريقيا الذي كان حارسا لدار سيده شعلان ببلاد الأندلس، غير أنه قتل سيده وأبق إلى ربح الثوار العبيد، محاولا العودة إلى بلده بعد أن زور صك حريته، فألقي القبض عليه، وأعيد للحاضرة ليتم محاكمته، وصلبه لتأكل الطير من رأسه، ويكون عبرة لغيره من العبيد السود الأبقين، الذين يقودهم "فانوس" العبد الأسود الذي لقبه المؤرخون بـ"الحمار الأسود" ولقبت ثورته بثورة "النعل الأسود" غير أنها كانت ثورة حاملة بمجتمع متساو، لا فرق فيه بين أبيض وأسود.

Abstract:

The literature of rebellion and the pursuit of liberation and the tearing of masks of familiar terms in behavior and thinking appeared. The creative writer carries this rebellious tendency, breaking restrictions, escaping from the captivity of situations, protesting against prevailing values, and searching for a way out of several political, social and economic crises. The aim of this research is to reveal the manifestations of rebellion in black literature. It also concludes with results that we can summarize in two points: Rebellion has a major role in self-affirmation and changing the bad conditions in society. There is an acceptable rebellion when it is against crises, but it should not rebel against religion and morals, as this is a deviation from human principles and values.

Keywords: black literature, rebellion, historical rebellion, social rebellion.

*** **

مقدمة:

قال الخليفة عمر بن الخطاب لعمر بن العاص عامله على مصر وكان ابنه قد ضرب قبطيا سابقه فسبقه: "يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار" لم تكن هذه المقولة الشهيرة التي أطلقها عمر بن الخطاب غاضبا مجردة من محمولاتها الاجتماعية والثقافية والدينية، بل كانت خطابا مركزيا مبنيًا على وعي تام بقيمة الحرية التي انفطر عليها الإنسان، وعظم ما سيتعرض له الإنسان جراء هذا الاستعباد. غير أنه على مر العصور لم تكد تخلو حضارة من الحضارات الإنسانية من الرق والعبودية للآخرين، وتعرض الضعفاء لأبشع وسائل الظلم والتعذيب تحت مسمى التملك والاسترقاق.

فمن قديم الأزل والصراع قائم بين الخير والشر فوق هذه الأرض، صراع على السلطة، وصراع على السيطرة، وصراع على المال والثروة، وصراع على المبادئ والعقيدة.. حتى لا يكاد يمر يوم من تاريخ البشرية دون دم ... ومعركة، صراع في كل شيء وصراع على لا شيء، حتى إذا عجز الناس عن افتعال سبب لهذا الصراع نكسوا على رؤوسهم وتصوروا السماء أرضا، والأرض سماء، واختلط عليهم الأمر فجعلوا الحق باطلا، والباطل حقا.1

1. معادلة السواد والاسترقاق والعبودية

من المتعذر تحديد بداية نشوء مؤسسة الرق، "فالرق ظهر منذ كان الاجتماع البشري ومنذ كف الإنسان عن ذبح أسراه في الحروب بعد أن تبينت له قيمة العمل وعرف أن الأسير الحي خير من الأسير المذبوح، وبذلك يكون الرق ظهر حيثما كانت هناك أعمال يمكن أن يرفع كاهلها عن الإنسان ليوكل به على إنسان آخر"2 فحل استخدام الأسير محل قتله. ومن هنا برز الرق كظاهرة اجتماعية تقوم على استغلال إنسان قوي لإنسان

ضعيف أفضل من قتله، واعتبر نجاة الأسير من حيث الأخلاق، تقدما عظيما، فالعيش في أدنى مراتب الحياة أهون من القتل. وحين أخذ الإنسان في زراعة الأرض واستقر فيها، أصبح له وطن ثابت، فأنشأ المدينة واختار لها مكانا على شواطئ الأنهار، ليفيد منها في ري الأرض واستخراج حبها، وبنشوء المدينة ظهرت الملكية الفردية متمثلة ملكية الأسرة،3 وأضحى العمل ضروريا لتنمية هذه الملكية.

1.1. الرق ومجتمع الاستعباد

الرق في اللغة: هو الضعف، ومنه رقة القلب، والضعف هنا ليس المقصود منه ضعف الجسد، فلربما وجد من العبيد من هم جسديا أقوى من الأحرار، والرق (بكسر الراء) من العبودية، واسترق مملوكه «أرقه» وهو ضد أعتق مملوكه، والرقيق هو المملوك واحدا وجمعا. وفي المصطلح: الرقيق أو العبد هو إنسان محروم من الأهلية، وهو مملوك للإنسان غيره، يتصرف فيه تصرفه بملكه، فله أن يستخدمه ويؤجره ويرهنه ويبيعه ويهبه، والرق وجد مع بدايات المجتمعات الإنسانية الأولى، حيث أوجده القوي على الضعيف، لتخليصه من الأعمال المتعبة له، ومن هنا كان الرق.4 غير أن دائرة الرق توسعت ولم تعد حكرًا على تخليص السادة من العمل الشاق، لقد تجاوزت ذلك لحرمان الإنسان كل حريته الطبيعية وامتلاكه لغيره كمتاع أو كسلع تباع وتشتري في الأسواق، لذلك "قالوا: إن الاسترقاق ظهر منذ كان الاجتماع الإنساني، وهو قول في غاية الإصابة والسداد، فإنه ظهر حقيقة عندما وقعت الاجتماعات البشرية الأولى، أيام كان حجاب الجهالة مسدولا على عالم الفطرة، والذي أوجب حصول هذا الفعل هو أمر يسهل بسطه وإيراده، وذلك أنه لما كان العمل من أصعب الضرورات وأشقاها أخذ الإنسان في البحث عما

يخلصه من الأعمال الشاقة."5 وفي ظلمات الإنسانية انطلقت أصوات تنعى على القوة ما أباحت لنفسها من حق استرقاق الإنسان ونادت بتحريره، لأن الحرية حق أزلي، لا يجوز سلبه ولا اغتصابه. وقد استطاع هذا النداء أن يحل من طوق الرق بعض الشيء، ولكنه لم يستطع تحطيمه، وظلت دعوته في نطاق النظريات الفلسفية⁶ لتسمو بواقع معلوم به عن عقول الحكماء، وتهفو إلى رؤاها قلوب المستعبدين.

2.1. استرقاق الزوج

صحيح أن الرقيق إنسان لكنه تحول بالرق إلى مجرد مال، يتصرف به ماله كمتصرفه بشيء من أشياءه، فله أن يبيعه ويؤجره، وله أن يرهنه، أن يوصي به، ويورث عنه إذا مات. غير أنه يتميز عن سائر الأموال في أنه ذو روح وإدراك، وأنه يفعل ما يؤمر به، فكانت الفائدة منه أكبر، ولذلك كان الرومان يعدونه من "الأشياء النفيسة" فبالرق تسقط حقوق الرقيق القانونية، فلا يحق له أن يتصرف في شيء حتى في نفسه، لأنه مملوك في نفسه وبدنه. "وفي القوانين والشرائع القديمة لم يكن محروما من أهليته القانونية فحسب، بل كان محروما من حقوقه الإنسانية، كحقه في الحياة وحقه في الزواج، فحياته رهن بإرادة سيده، وليس من حقه أن يتزوج، وإنما يستكثر بالتوالد كالأنعام، ولا ينسب إليه أولاده، ولا تربطه بهم قرابة ولا نسب، وما ينسل منه ملك للسيد، ينزعهم متى يشاء، ويتصرف بهم كما يشاء"⁷

كما شاع استرقاق الزوج والسود والنمط السوداني الأفريقي كعنصر ومكون أساسي للنظام الاجتماعي، وللرقيق كقطاع اقتصادي متميز ومكمل للبنية الاجتماعية الاقتصادية مع الزراعة والرعي والتجارة الداخلية والتجارة الخارجية والتجارة العابرة. "ولم يحتل الرقيق والاسترقاق

مكانته وفاعليته هذه، مع توحيد السلطنة السودانية في القرن السادس عشر، إنما زحف نحوها بجذوره الممتدة من مملكة (الكيرا) على هضاب ومنحدرات جبل مرة، ومملكة (التنجر) شمالا ومملكة (الداجو) جنوبا، قبل أن تجمع السلطنة شملها. وكانت أعراق (الفور) يسترق بعضها البعض في ممالكها، ولكنها بعد استقرار السلطنة استقرت مجتمعة السلالات الأفريقية المجاورة لها جنوبا وشرقا وغربا. وظلت على نفس الأعراق والضوابط التي حكمت الاسترقاق وحددت مصادره: كالغزو أو الأسرار الاختطاف أو الإتاوة أو المقايضة، سابقة لقانون (دالي) السابق للشريعة الإسلامية، والتي تبنتها السلطنة في عهد "سليمان سولونج" سنة 1640م، ولا تختلف تلك الأعراق والضوابط في جوهرها عن ممارسات ممالك "حزام السافانا" الأفريقية المتجاورة، إن لم تكن المتداخلة، من الهضبة الإثيوبية شرقا حتى الساحل والمحيط غربا، أو ما كان يعرف بالسودان الشرقي، والسودان الأوسط، والسودان الغربي، وفيما بعد بالسودان الإنجليزي، والسودان الفرنسي. ويتخلل نسيج تلك للمالك خيط التدرج من منظومة أعراق وضوابط، إلى نسق قانون محلي، إلى تبني الشريعة الإسلامية، في يسر وتسامح في منهجها التشريعي وفي ممارسة الرق والاسترقاق.⁸

فهل بقيت بعد ذلك حاجة تضطرننا إلى القول: بأن الاسترقاق بالوجه الشرعي الإسلامي، لا يمكن تحقيقه ولا يتأتى حصوله مع هذه المنطلقات، ولا يمكن المناداة بحرية وتساوي العبيد خاصة السود مع جميع الطبقات من المجتمع حتى تكون قد أيدت وأوثقت عهد إلغاء الاسترقاق، "وإنه ليحق لي بعد هذا كما يقول الباحث أحمد شفيق؛ بل يجب علي أن أجاهر على رؤوس الأشهاد بأن حضرة (الكردينال لافيغري) هو وكل من يرى رأيه ويذهب

لو أنقذ العبد سيده أو أنقذ زوجته أو أحد أبنائه من خطر يهدد حياته." 10

2. تفسير السواد وهمجية السود

إن تفسير ظاهرة السواد اعتمد فيه على الخصال الجسمانية للسود، وعلى شبكة ضخمة من المعارف المتداولة والمعمدة والموثوقة آنذاك: من علوم الدين والكلام، والجغرافيا والتاريخ، والتنجيم والفلك، والطب وعلم الملاحاة وغيرها.. وتم توظيف هذه المعارف في تكوين أهم التفسيرات الكبرى التي ظهرت في هذا السياق لتفسير ظاهرة السواد على وجه الخصوص، وذلك من حيث هي غريبة، وغير عادية، وغير سوية، ومرضية؛ ومن هنا فهي تستلزم التفسير والتأويل.

وقد عرف المتخيل العربي تفسيرات عديدة لسواد البدن، بعضها كان متأثراً بمفاهيم الطب حيث يرى أن السواد مرض أو عرض لمرض ما، وبعضها كان متأثراً بمفاهيم التنجيم ويرى أن لسواد البدن علاقة بتأثيرات النجوم والكواكب على المخلوقات غير أن هذين التفسيرين تم إدماجهما في صياغة أهم تفسرين عرفتهما الثقافة العربية الإسلامية لظاهرة السواد وهما:

✓ التفسير التاريخي التوراتي

✓ والتفسير الجغرافيا الطبيعي

فالتفسير الأول: يذهب في تفسيره لظاهرة السواد مذهبا تاريخيا، يستمد من الإرث التوراتي الذي تسرب إلى الثقافة العربية الإسلامية من خلال الإسرائيليات، ويرى هذا التفسير أن السواد لعنة إلهية حلت بذرية حام بن نوح على إثر دعوة نوح على ابنه بالعبودية والسواد.

أما التفسير الثاني: فيذهب مذهبة جغرافية متأثرة بالإرث البطليوسي، وذلك من خلال تقسيم الأرض إلى أطوال وأعراض، ومن خلال تبني تقسيم

مذهبه واقعون بلا مشاحة في أشد الأخطاء، بعيدون عن الصواب بزعمهم أن ديننا القويم يساعد على اصطياذ الرقيق، وأن الإسلاميين يعتقدون ويقولون: بأن الزنوج ليسوا من الإنسان، بل إن مقامهم أدنى من مقام الحيوان." 9

ومن بين القوانين أيضا التي سنت للعبيد السود والزنوج ما وضعته مستعمرة (كارولينا) عام 1638 بصفته أول قانون للعبيد السود، جاء فيه: "أن العبد لا نفس له ولا روح، وليس له فطانة ولا ذكاء ولا إرادة، وان الحياة لا تدب إلا في ذراعيه. وقد جعل القانون للسيد سلطة مطلقة على عبده الزنجي، فله أن يتصرف فيه بالبيع والإيجار والرهن والمقاصة، وله أن يقامر عليه، ولا تثريب على السيد إذا قتل عبده. ويعدم العبد إذا ضرب سيده أو سيدته أو عصى لهما أمرا، ويعدم إذا قتل رجلا أيضا ولو دفاعا عن نفسه، ولا تسمع حجته، ويكفي أن يكون زنجيا حتى يدان ويقدم.

ولا يجوز للعبد أن يحمل سلاحا، ويعدم إذا حملة، كما لا يجوز له أن يخرج من مزرعة سيده إلا بأذن كتابي يحمله بيده، ويعدم إذا خرج بدون هذا الأذن، ولكل أبيض يلقاه أن يعيده إلى سيده بعد أن يجلدته عشرين جلدة. وليس للعبد أن يتزوج إلا بأذن سيده وبمن يختارها له، ويملك السيد أولاده، وله أن يفرقهم عن أبويهم إذا شاء بيعهم أو بيع أبويهم. وللسيد أن يستمتع بزوجة رقيقه وبأية من زنجيات مزرعته. وقد اقتبست المستعمرات الجنوبية نظام مستعمرة كارولينا ونحت نحوه في معاملة العبيد.

كما "كانت المستعمرات تمنع تعليم العبيد، وتقرض عقوبات على من يعلمهم، من غرامة وحبس وجلد، بدعوى أنهم إذا ما تعلموا فسوف يثورون على أسيادهم ويمثلون. وتمنع أنظمة تلك المستعمرات عتق العبد، إلا في حالات نادرة، كما

3. تشكل الصورة النمطية الهمجية للسود خلق الله الإنسان في أحسن صورة وكرمه أحسن تكريم، وفضله على البهائم والحيوانات، وميزه بالعقل، لكن الاسترقاق الغيظ جعل الإنسان يسترق غيره الإنسان، يبيعه ويشتره، يذيقه صنوفا من العذاب والمذلة، ويخس ذاته لينزل به إلى مراتب البهائم، خاصة إذا تعلق الأمر بهؤلاء الزنوج والسود، كما لو أن الاختلاف في النوع لا في الدرجة. فالإسلام اعتبر الرقيق. وإن كان يعتبر أدنى من الحر من حيث أنه مملوك. فانه حرم إذلاله وهوانه وحض على رعايته والحذب عليه، والمؤمن منه يتساوى، من الناحية الإيمانية، مع الحر المؤمن، كلاهما يخضع لمعيار واحد هو "التقوى" ويكرم عند الله أتقاهما، وقد تقرر هذا المعيار بقوله تعالى: يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴿١٥﴾ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴿١٥﴾ وبهذا المعيار يتفاوت جميع المؤمنين أحرارا وعبيدا. وإذا ما أعتق العبد وتحرر، تساوى مع الحر في الحقوق والواجبات، لا يميز أحدهما على الآخر إلا بمعيار التقوى، وفي ذلك يقول النبي: (لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى). وقد طبق هذا المبدأ نفي عهد الرسول وعهد خلفائه الراشدين، 16 غير أن العرب، وقد كانوا قريبي عهد بحياة الجاهلية، لم يطبقوا ذلك فيما بعد. فلما تولى الأمويون الحكم، غلبت العصبية العربية عليهم، فلم يعترفوا بالمساواة بين العرب والموالي، سواء أكانوا موالي عتاقة أو موالي ولاء.

إن هؤلاء السودان يمتلكون هيئة بشرية، فهم منتصبو القامة، ذوو بنية قوية، لكن هذه الهيئة التي يشترك فيها الأسود والعربي المسلم ليست كافية لإدراج هؤلاء السود في عداد البشر الذين كرمهم الله وخلقهم في أحسن صورة وتقويم. لأن إنسانية البشر، من منظور هذه الثقافات، لا

الأراضي والمواضع العامرة منها: إلى سبعة أقاليم، يبدأ الإقليم الأول من الجنوب، حيث السودان والزنوج، وينتهي السابع في الشمال، حيث يأجوج ومأجوج وهمج الشمال. وإذا كان التفسير الأول يركز على أساس أسطوري، فإن الثاني يركز على أساس استعاري مجازي لا غير 11.

وهكذا جرد كل من الزنوج السودان من كرامتهم الإنسانية، بل من إنسانيتهم، ليدرجوا في عداد الوحوش والبهائم، لا شيء غير أنهم يختلفون عن العرب المسلمين من أهل الأقاليم المتوسطة المعتدلة من حيث الهيئة واللون والثقافة، غير أن الأخطر في الأمر هو أن يجهد المتخيل العربي من أجل اختزال خصال هؤلاء البشر الثقافية إلى خصال طبيعية بيولوجية؛ ليبدو الاختلاف قائمة على أسس طبيعية خارجة عن إرادة الإنسان الحرة 12 وخارجة إرادة الاختيار والقدرة على الابتكار والتطوير لدى الإنسان. وقد يحدث العكس من خلال اختزال الخصال البيولوجية إلى خصال أيديولوجية خارجة عن تصنيفات البشر، باعتبار

أن كل أسود هو ذو لون قبيح ومشحون بقيم سلبية دائما، فمن كان أسود اللون فذلك قدره ونصيبه الذي لم يختره، ومن تغير لونه إلى السواد فذلك مما اقترفته يده من كبائر الإثم والذنوب. ومن هذا المنطلق لم يجد كثير من المفسرين كالقرطبي والطوسي وغيرهما غضاضة في تفسير قوله تعالى: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ 13 بأن من علامات المجرمين يومئذ سواد الوجه وزرقة العيون. وعلى هذا أصبح متداولاً في الثقافة العربية الإسلامية أن «سواد الوجه» على وجه الحقيقة أو المجاز، إنما هو ضرب من ضروب العقاب على ارتكاب الذنوب، وأثر واقع من اقتراف الكبائر، وحقيقة حاصلة عن الكفر والجحود 14.

تتحقق في الهيئة، بل في الامتثال لنسق ثقافي ذي مصدر إلهي تحديداً 17 ولهذا السبب ظل تمثل البياض تزيّناً للسادّة وكبار القوم، لأن صور البياض تكتسب معناها في علاقتها بصور السواد. أما في ذاتها وفي وضعها المعزول، فإنها صور مستغلقة تدل على الصمت الذي لا معنى له. كما الحرية البيضاء لا معنى لها.. من دون شبح الاسترقاق ودواء المتعة الفردية، ومن دون عصا القوة المطلقة السلطة على حياة شخص مختلف. 18

3.1. بيع العبيد الزنوج والسود

لقد تنوع الرقيق وتباين في رواية محمد مبارك المعنونة بـ "مهجة" من الهند والفرس والروم أو الفرنجة والصقالبة والبلغار وغيرها.. لقد شكلوا صوراً متباينة في الجنس والعرق والدين واللون، لكن أياً من هذه الصور لم تكن تمثيلاتها ظاهرة وبارزة بحجم تمثيلات اللون (الأبيض/الأسود) والذي امتد على مستوى كبير متغاير ومتباين؛ حيث الرقيق الأبيض موجه لخدمة القصور والأمراء، وأما الأسود فهو موجه للأعمال الشاقة والحراسة والزراعة وغيرها.

أما "النساء" فكان مطلوبات لخدمة البيوت والقيام بالطبخ والتنظيف لاغير؛ إذ يباع هؤلاء العبيد السود كسلع من لحم ودم، وقد سن عرف النخاسين عل قوانين للبع والشراء يتعهدونها بينهم كما يتعاهدون العبيد بالضرب والكي والتأديب فقد يعتمد النخاسون في الأسواق "إلى إلباس الإماء المعروضات ألبسة قصيرة رقيقة تبرز قسمات أجسادهن إلى درجة العري. يعرضون الذكور عرايا إلا من قطامير تستر عوراتهم كي تظهر أجسادهم الصلبة للمشتريين حتى وإن كان الجو بارداً. يسمح النخاسون للمشتريين بالاقتراب منهم ولمس جلودهم ومعاينة شعورهم وألسنتهم وأسنانهم وأضراسهم، واختبار حدة نظرهم، وتشمم أنفاسهم

وحملهم على التلّطّ لمعرفة سلامة ألسنتهم، ومعرفة اللّغات التي يتكلّمونها. يسمح لهم أيضاً بالاحتفاظ بالرّقيق ثلاثة أيام بالدور والخانات والنزل التي ينزلون بها للوقوف على أحوالهم وعلى العيوب التي فيهم إن وجدت، حيث يمكنهما لاستعانة بأهل المعرفة في ذلك، شرط دفع ربع قيمتهم للنخّاس والتّعهد بعدم وطء الإماء، فإن وقع وغير المشتري أمة بكراً ووطأها، فعليه أن يشتريها عنوة وأداء مبلغ إضافي جزاء فعلته المنكرة. وإذا كان بأحد الرّقيق عيب، ركّز عليه المشتري والسّمسار الذي يستعين به وجادلاً النّخّاس لينقص من ثمن الرّقيق إلى أقصى حد. 19

لقد سن النخاسون قوانينهم الخاصة لبيع العبيد، فبيع (الزنجيات) مثلاً يختلف عن بيع البياض، نظراً لسواد لونهم وهن في عرف النخاسين لا يصلحن إلا لخدمة البيوت لقبّحهن وقلة الانتفاع بهن، جاء في الرواية "عابن السلعة المعروضة. ساوم كثيراً في ثمن الأمة مبرزا عيوبها، فأصلها الرّنجي المنحدرة من الوّخش غير صالح للبيوتات العلّية التي يتعامل معها. قال للمرأة كلاماً يحفظه عن ظهر قلب: «الرّنجيات مساويهن كثيرة، وكلّما زاد سوادهن، قبحت صورتهم، وتحدّدت أسنانهم، وقّل الانتفاع بهنّ، وخفيت المضرة منهن، والغالب عليهنّ سوء الأخلاق وكثرة الهرّب، وليس في خلقهنّ الفهم والرّقص والإيقاع فطرة فيهنّ وطبع فيهن. ولعجومة ألفاظهن عدل بهن إلى الزمن والرّقص...». اقتنعت «مهجة» بكلام النّخّاس واستسلمت لحجّته وقبلت الثمن الذي عرضه عليها... باعت المرأة أمتها «زهرة» كما بيعت هي يوماً في سوق مرفأ مدينة «دانية» على شاطئ بحر «الروم». آدمية تباع كمتاع أو حيوان. تؤدّب بالبيع والضرب والكي والبت وأحياناً بالقتل. 20 لأن مثل هؤلاء النّخاسين لا عاطفة في قلوبهم لذلك جاء

تسمية النخّاس بصيغة المبالغة من النّخس وهو الألم الذي يسببه منخاس من حديد أو خشب حين يتكرّر وطؤه في نكي الجرح المتقيح في مؤخرة الدّابة. والنخّاس يصادر أثمن قيمة جُبِلَ عليها الإنسان ألا وهي الحرّية.²¹

أما «عفراء» الأمة الزنجية، فقد كلفها سيدها بكل الأشغال الخاصة بالدار، من تسوق وطهي الطعام وجلب الماء من البئر وتحضير حمام سيدها وتديلّك جسمه ومعاشرته متى أراد ذلك أو تجهيز الأمة التي يختارها من بين إمائه ليلته. تدخلها الحمام وتفرك جسدها وتمشط شعرها وتعطرها بماء الزهر والقرنفل والريحان وتسّر لها ببعض النصائح في معاشرة سيدها. يحق للرجل المسلم التسري بإمائه ما شاء منهن وإن كثر عددهن وتنوعت أصولهن. ﴿أو ما ملكت أيماهنم فإنهم غير ملومين﴾²² كانت «عفراء» أكثر الإماء لزوما لفراش سيدها. لكنه كان يطردها من فراشه حين يقضى منها وطرا، فتنام عند رجله مثل كلبة أليفة. أعجب بخنوعها ورقتها، فهي أمة لا يمكن أن تتحول إلى «أم الولد» لعقم سيدها.²³ وهنا تظهر الفروق بين هؤلاء الزوج السود وأسيادهم من العرب والمسلمين فروقة نوعية بين نوع الإنسان ونوع الحيوان، ومن ثم تكون هذه الفروق طبيعية لا ثقافية، فهؤلاء السود عاجزون عن تطوير ثقافة خاصة بهم؛ ولذا لا ينبغي النظر إلى هذه الاختلافات فيما بيننا وبينهم على أساس أنها اختلافات ثقافية، بين ثقافة إنسانية وثقافة إنسانية أخرى، بل هي اختلافات طبيعية بين حيوان طور ثقافة فاستحق أن يكون إنسانا، وبين حيوان عاجز عن ذلك فاستحق أن يبقى في طور الحيوانية؛ وذلك ليقنع الجميع بحقيقة أن هؤلاء السودان إنما يقومون من خلال إدعانهم وخضوعهم لأسيادهم بأدوارهم الطبيعية التي فطروا عليها. يمتدح ابن بطالان السوداوات النوبيات

بخصال كثيرة، ومن هذه الخصال إدعانهم للمولى والسيد كأنهن فطرن على العبودية، فطرة لا تبديل لها ولا تحويل، هكذا كما لو أن عبودية هؤلاء السود جزء من فطرة الله ﴿التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾²⁴ وكما لو أن هؤلاء السود جزء من بهيمة الأنعام التي أحلها الله للإنسان لاستعمالها فيما يحقق له المنفعة استنادا لقوله تعالى: ﴿أحلّت لكم بهيمة الأنعام﴾²⁵ وبذلك يمثلون بصدق ما يقال عنهم، وصحة ما يوصفون به من خنوع وخضوع، وجهل وتخلف وغباء وقبح، وحيوانية وتشوه في الخلق والخلقة، وهذه هي أبرز الصور النمطية التي صاغتها الثقافة العربية عن السود، واختزنها من ثمّ المتخيل العربي الروائي والسردى. غير أنه من المهم أن نستكشف «جوهر الإنسان» لا لونه فقط، في حقيقته المجردة المطلقة، ذلك أن النظرة إلى الآخرين تتوقف على الكيفية التي نفهم بها هؤلاء الآخرين كبشر أو بهائم، فتحديد أي نوع الكائنات يعتمد على المعيار الذي نستبطنه، ونعتمده لقياس إنسانية هؤلاء أو حيوانيتهم، "من هذا المنطلق وجب النظر إلى هذه الأمور لا بوصفها مقولات معرفية خالصة، بل بوصفها «معرفة» تستبطن شكلا من أشكال القوة والهيمنة. لأنها . بعبارة أخرى . مظهر من مظاهر تواطؤ "المعرفة والقوة" أو "الهيمنة"²⁶

لذا فإن المقوم الجوهرى لإنسانية البشر ظل مفهوما نسبيا خاضع للتغير، في كل مرة تتغير فيه أحوال وآليات رؤية العالم لأصناف البشر، وليس ثمة ما يمنع أن تجتمع محددات في أن جوهر الإنسان يكمن في: التحضر والهيئة والأخلاق والدين واللغة والعقل معا، لا في لونه أو عرقه فقط.

3. 2. الذات الممزقة واضطرابات الهوية

السوداء

إن حرمان الشخص حريته وإذلاله ليصير ملكاً للغير يتصرف فيه كيف يشاء ويؤدبه بالضرب والبتل والقتل والخصاء والجباء، وإذا قتلهم كل أنواع التعذيب، هو أسوأ ما يتعرض له العبيد يومياً من طرف أسيادهم، فقد كان النخاس «علي بن أحمد التميمي» - رغم سمته وهوادته - يعامل الرقيق بصرامة بالغة، رقيقاً معهم متى ما رأى في الرقة رداً لها ضاع منهم، من كرامة واعتبار فقدوه مع الاسترقاق، وصارماً لحد القتل، إذا خرج الرقيق الأسود عن طاعته لأنه "يؤمن إيماناً راسخاً بأنهم أحرار بالفطرة واسترقاقهم حالة غير طبيعية متنافية مع إنسانية الإنسان الذي خلقه الله حرّاً. بهذا كان يسرّ لصبيّه «شعلان» كلّما تسامرا وحدهما بعد إغلاق أبواب الغرف على رقيق الدار. وبهذه الازدواجية في معاملة رقيقه، كان هذا النخاس إذا أمر رقيقاً من رقيقه يمثل صاغراً كما تمثل الدواب والكلاب وإن عصي، سلط عليه العذاب الشديد بلا رحمة. يتراوح بين الضرب والكي والحرمان من المأكّل والمشرب... ويصل العقاب في بعض الأحيان - وهذا في الحالات النادرة - إلى القتل. كان يأمر صبيّه «شعلان» بربط العبد العاصي من يديه وتعليقه في غصن صلب من شجرة التين التي كانت وسط الدار متفرعة تغطي الجزء الأهم من سمائها، ويأمره بضربه بسيّاط مبللة مصنوعة من أذنان البقر. يمثل الصبي، وبفرح زائد، يضرب العبد بكل ما أوتي من قوة بلا رحمة، فيتعالى صراخ العبد المسكين مع الجلدة الأولى، ليتحوّل إلى أنين يمزّق أنياب قلوب رقيق الدار، مع الجلدة المائة أو نحوها. يتجدّد جلد العبد العاصي يومياً مع حرمانه من الطعام والشراب وقضاء الحاجة، أو يردم في حفرة أيام الحرّ، ويترك تحت شمس حارقة تغلي دماغه

وتجفّف جسمه. يبقى على هذا الحال حتّى يعلن «توبته» لسيّده أو يموت. ويمكن للنخاس أن يضحي برقيق واحد ليربح بقية رقيق الدار. وهذا هو العرف عند النخاسين. 27. فها دامت هنوك طقوس لتوبة العبد أثناء تمرده؛ كسجوده لسيده وتقبيل رجليه، وتقديم رقبته لمالكه ليدوس عليها، كما داس على كرامته من قبل؛ ف"من طقوس «التوبة» أن يسجد العبد كما في الصلاة، ويقبل قدم سيّده اليمنى ويبقى ساجداً ليضع السيّد قدمه اليسرى على رأسه ويضغط بكل جسمه حتى يحس بقطعة عظام رأس العبد تحت قدمه، من ذلك اليوم، إمّا أن يقتنع العبد بعبوديته ودونيته، ويخس ذاته إلى درجة العدم وإمّا أن يسرها في نفسه، وينتقم لذاته من سيّده متى وجد الفرصة سانحة لذلك. وإذا واثته الفرصة، فلا يمكن أن يضيّعها، فيقتل سيّده شر قتلة وهو يعلم علم اليقين أنّه سيقتل بمثلها أيضاً. 28. لقد كشفت بعض السلوكيات التي اكتسبها أثناء الاسترقاق، كالتعود على حياة الرق، عما يسمى بالولاء للسيد والخنوع له حتى بعد تحريره، ويرتبط العبد أو الرقيق بعلاقة ولاء مع سيّده وتنشأ هذه العلاقة بعد أن يعتقه سيّده، "أحياناً كان السيد لسبب أو لآخر يعتق أحد أرقائه، فلا يصير العبد حراً، بل في هذه الحالة تنشأ ما يعرف بعلاقة الولاء وهو أن يظل العبد في أغلب الأحوال مرتبطاً بسيّده ويستمر خضوعه لسيّده وخنوعه له" 29. وإذا قصر العبد في واجباته المفروضة عليه يجوز لسيّده السابق أن يستعيده من جديد كرقيق له.

لقد سحق الخوف آخر ذرة من شجاعة العبيد مع أسيادهم، فهم يعلمون مصيرهم سلفاً، فإما الهروب أو الموت تحت رحمة العبودية، أو انتظار الفرصة السانحة لينتقم لذاته من سيّده شر انتقام أو سواجده المصير ذاته أو أسوأ منه، لقد أجهز العبد

من يحاكمكم الآن في هذا اليوم، لو تركتم عدالة السماء تسود في الأرض بين العباد. أنتم لا تأخذون من شريعتكم إلا ما يخدمكم. تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض، لماذا استعبدتموني وقد ولدني أمي حراً؟ أية شريعة أباحت لكم ذلك؟ (..) اسمحولي أن أقول لكم في آخر كلمتي هاته أني أتبول على أي حكم تصدرونه ضدي، لأن ورائي جيشاً من الأحرار سيزحف عليكم." 31 كانت هذه الكلمات الأخيرة كافية لقطع لسانه، وإسالة عينيه، ودق المسامير في كاحليه، وصلب خارج المدينة ليشاهده الداني والقاصي كيف تأكل الطير من رأسه، ويكون عبرة لغيره من الآبقين، لكن زلزالاً سيضرب أرض الأندلس، "زلزال الثورة التي قادها الثائر الزنجي «فانوس» الذي احتل كل جنوب الأندلس وهدد حاضرتة، ولولا تحالف أميرها مع صاحب مراكش والنصراني «ألفونسو» لما تمكن من القضاء على ثورته.

كانت ثورة رقيق يا مولاي؟

أجل أشعلها الرقيق السود والبيض دون

استثناء

لم أعلم شيئاً عن هذه الثورة يا مولاي

. أوه يا أميرتي الذين كتبوا عنها هم من

مؤرخي البلاط. كتاباتهم كلها تحامل على الثوار

وزعيمهم الأسود، «فانوس» لقبه هؤلاء المؤرخون بـ

«الحمار الأسود» وبـ «النعل الأسود» وما إلى ذلك

من النعوت القذحية، في حين كان الرجل يحلم

بمجتمع متساو لا فرق فيه بين سيد وعبد. 32

ختاماً

لقد عرت رواية محمد مباركي بشكل جريء

العلاقات اللامتكافئة بين السيد وعبد، وكشفت

عن حجم الظلم والجور الممارس على إنسان آخر

مساو لك لكن ظروف الحياة أجبرته على أن يباع

ويشتري ويعذب ويجبر على ممارسات مشينة، دون

الأسود "أفلح ابن أدغال" إفريقيا بيديه الفولاذيتين وقبضته الحديدية على عنق سيده "شعلان" وأوقف آخر نفس له في الحياة، ليريح مهجة وباقي الإماء منه، ويريح أيضاً كل الحاضرة من دار اللهو المجنون التي يديرها، حيث اشتراه انتدبه حارساً لها. "جمع العبد «أفلح» بعض الزاد وملاً قربة بماء البئر وودّع الإماء الثلاث بصوت خافت وأبق، جرى مثل حيوان مطارد عبر أزقة الرّبض الملعون بكل ما أوتي من قوة اتجاه الأفق البعيد، حيث عانقت السماء الزّاهية بنور قمرها ونجومها الأرض، ومسحت عن وجهها شيئاً من الظلام. 30

زور أفلح صك مكاتبة له ولزوجته عفراء التي تعرف عليها في مخيم الثوار الآبقين، وعزما معا على ركوب البحر للعبور إلى بر المغرب، ثم العودة إلى (السودان) بلدهما الأصلي، غير أن الحظ لم يحالفهما في ذلك، فقد تم إلقاء القبض عليهما، من طرف صاحب الشرطة، وتم نقل (أفلح/ساجي) في أقفاص حديدية وأعيد إلى الحاضرة لتتم محاكمته، استمع أفلح إلى التهم الموجهة إليه، ثم طلب كلمة أخيرة قبل تنفيذ الحكم عليه، قائلاً: "أنا افلح لمن لا يعرفني، اسمي الحقيقي الذي سماني به والذي هو "صامبو" أنا إنسان حر ابن حر رغم أنف الذين استعبدوني، سرقني مجرمون عرب أجلاف من قريتي الجميلة قرب نهر عامر من بر "السودان الغربي" وحملوني في عنبر سفينة أنا والكثير من الأحرار وباعونا في السوق مثل البهائم، رأيتهم يتوضؤون ويركعون ويرفعون أيديهم بالدعاء لربهم ويبتهلون، سألت أكثر من مرة عن أية أدعية كانوا يدعون بها الله تعالى بها (..) اشتراني السادة وباعوني من سيد لآخر، انتدبني شعلان لأحرس الفسق المحرم بالشريعة، قتلت شعلان، (..) وهربت من الجزيرة لأعود إلى موطني حراً، أنا "صامبو" الزنجي، كل زنجي هو "صامبو" الحر، أنا

والعبودية، وتسويغ معاملتهم السيئة لهؤلاء السود، الذين تمثلت أقصى أمانهم بالحرية وسط مجتمع لا يفرق بين أبيض وأسود.

رحمة ودون النظر إلى إنسانيته، كما كشفت طريقتهما عمق النظر ومعايشة نفسيات هؤلاء العبيد المسترقين، ومرجعيات "التاريخ الأسود" تجاه هؤلاء الرقيق السود، لتسويغ استمرار نظام الرق

- 14 ينظر: نادر كاظم، تمثلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ص 141.
- 15 سورة الحجرات، الآية 13.
- 16 أحمد شفيق، الرق في الإسلام، ص 107.
- 17 نادر كاظم، تمثلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ص 112.
- 18 طوني مورييس، صورة الآخر في الخيال الأدبي، ترجمة: محمد مشبال، منشورات كلية ظهر المهرار، المغرب، ط 1، 2009.
- 19 محمد مبارك، رواية مهجة، مطابع الرباط نت، الرباط، المغرب، ط 1، 2018.
- 6، 7.
- 20 محمد مبارك، رواية مهجة، ص 63.
- 21 محمد مبارك، رواية مهجة، ص 40.
- 22 سورة المؤمنون، الآية 5، 6.
- 23 محمد مبارك، مهجة، ص 18.
- 24 سورة الروم، الآية 30.
- 25 سورة المائدة، الآية 1.
- 26 نادر كاظم، تمثلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ص 165.
- 27 محمد مبارك، مهجة، ص 16.
- 28 محمد مبارك، مهجة، ص 16.
- 29 عابدة العزب موسى، تجارة العبيد في إفريقي، ص 21.
- 30 محمد مبارك، مهجة ص 17.

- 1 ينظر: عبد الودود شلي، مجمع بلا فوارق، دراسة موضوعية عن موقف الإسلام من الرق والفقير، الأوقاف والشؤون الإسلامية، الشارقة، الإمارات، ط 1.
- 2 عابدة العزب موسى، تجارة العبيد في إفريقيا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط 1، 200.
- 8، ص 21.
- 3 عبد السلام الترماني، الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 23، 1990، ص 15، 16.
- 4 الرق عبر التاريخ الإنساني، مجلة أحوال المعرفة، تصدر عن مكتبة الملك عبد العزيز، السعودية، العدد 73، السنة 18هـ، 2014.
- 5 أحمد شفيق، الرق في الإسلام، ترجمة: أحمد زكي، مكتبة النافذة، مصر، ط 1، 2010.
- 9، ص 9.
- 6 عبد السلام الترماني، الرق ماضيه وحاضره، ص 13.
- 7 ينظر: عبد السلام الترماني، الرق ماضيه وحاضره، ص 105.
- 8 محمد إبراهيم، نقد علاقات الرق في المجتمع السوداني، دار عزة للنشر والتوزيع، السودان، ط 2، 2003.
- ص 74.
- 9 أحمد شفيق، الرق في الإسلام، ص 91.
- 10 عبد السلام الترماني، الرق ماضيه وحاضره، ص 148.
- 11 ينظر: نادر كاظم، تمثلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، البحرين، ط 1، 2004.
- ص 218.
- 12 نادر كاظم، تمثلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، ص 192.
- 13 سورة الرحمن، الآية 41.

7. محمد إبراهيم، نقد علاقات الرق في المجتمع السوداني، دار عزة للنشر والتوزيع، السودان، ط2، 2003.
8. محمد مباركي، رواية محجة، مطابع الرباط نت، الرباط، المغرب، ط1، 2018.
9. محمد مباركي، رواية هذا الرطيب، مكتبة سلمى الثقافية، الرباط، المغرب، ط1.
10. نادر كاظم، تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، البحرين، ط1، 2004.

5- المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
1. أحمد شفيق، الرق في الإسلام، ترجمة: أحمد زكي، مكتبة النافذة، مصر، ط1، 2010.
 2. الرق عبر التاريخ الإنساني، مجلة أحوال المعرفة، تصدر عن مكتبة الملك عبد العزيز، السعودية، العدد73، السنة 18هـ، 2014.
 3. عبد الودود شلبي، مجتمع بلا فوارق، دراسة موضوعية عن موقف الإسلام من الرق والفقير، الأوقاف والشؤون الإسلامية، الشارقة، الإمارات، ط1.
 4. طوني موريس، صورة الآخر في الخيال الأدبي، ترجمة: محمد مشبال، منشورات كلية ظهر المهرار، المغرب، ط1، 2009.
 5. عبد السلام التمانيني، الرق ماضيه وحاضره، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد23، 1990.
 6. عائدة العزب موسى، تجارة العبيد في إفريقيا، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط1، 2008.